Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR منار الشرق للدراسات والأبحاث Manar Elsharq for Studies & Research

الرمل العالي – قرية في مدينة

بلال شمص، أ. الدكتور خالد الكردي مشرف رئيسي، أ. الدكتور محمد علي القوزي مشرف مشارك
قسم التاريخ – جامعة بيروت العربية

استلام البحث:2025-06-25 مراجعة البحث :2025-07-06 قبول البحث:2025-08-08

الملخص

ينطلق هذا البحث من سؤال إشكالي رئيس مفاده: كيف تتجلى آليات التثاقف وإعادة إنتاج الهوية الاجتماعية لدى الجماعات الريفية الوافدة إلى حيّ الرمل العالي في ضواحي بيروت؟ ويسعى إلى تحليل مظاهر التعايش والصراع بين الريف والمدينة في إطار ديناميات النزوح، من خلال توظيف أدوات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ونظرية التفاعل الرمزي، تُظهر الدراسة كيف تمكن الوافدون من إعادة إنتاج أنماطهم الاجتماعية والثقافية داخل بيئة جديدة، فأسسوا مجتمعًا هجينًا يجمع بين خصائص القرية وأبعاد المدينة. وقد تناولت فصول الدراسة مراحل تطور الحي، بدءًا من تأسيسه العشوائي، مرورًا بمرحلة الاستقرار المؤسسي والاجتماعي، وصولًا إلى التبادل الثقافي العميق بين الوافدين والبيئة الحضرية. حلّلت الدراسة تطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، بما في ذلك بناء المؤسسات الدينية والاجتماعية، وظهور شبكات التضامن المحلية، وتحولات الأسرة والزي والمطبخ واللهجة، فضلاً عن تأثير الأجيال المختلفة في تغيير الهوية والانتماء، وتخلص الدراسة إلى أنّ الرمل العالي يمثّل مختبرًا حيًا لفهم عملية التثاقف والاندماج الجزئي في السياق اللبناني. ورغم أن الحي ظل يعاني من التهميش التنموي، إلا أنه قدّم نموذجًا لتعايش فريد بين الريف والمدينة، حيث تمكن السكان من الحفاظ على هويتهم الأصلية بالتوازي مع تبني معالم الحياة الحضرية.

الكلمات المفتاحية: الرمل العالي، النزوح الريفي، التثاقف، الهوية الاجتماعية، التحضّر، الضاحية الجنوبية، المجتمع اللبناني، الأنثروبولوجيا الحضرية، الأجيال، التفاعل الثقافي.

Abstract:

This research departs from a central problematic question: How are the mechanisms of acculturation and the reproduction of social identity manifested among rural groups migrating to the Raml Al-Aali neighborhood on the outskirts of Beirut? The study aims to analyze the dynamics of coexistence and tension between rural and urban life in the context of displacement, through the lens of social anthropology and symbolic interactionism theory.

The study demonstrates how migrants were able to reproduce their social and cultural patterns within a new environment, establishing a hybrid community that blends village characteristics with urban dimensions. The chapters of the research explore the neighborhood's development stages—from its spontaneous establishment to a phase of institutional and social stabilization, culminating in deep cultural exchange between the newcomers and the urban setting.

The study analyzes the evolution of social and economic relations, including the construction of religious and social institutions, the emergence of local solidarity networks, transformations in family structures, clothing styles, cuisine, dialects, and the generational impact on identity and belonging.

The study concludes that Raml Al-Aali serves as a living laboratory for understanding the processes of acculturation and partial integration in the Lebanese context. Despite continued developmental marginalization, the neighborhood presents a unique model of coexistence between rural and urban spheres, wherein residents managed to preserve their original identity while simultaneously embracing aspects of urban life

Keywords: Al-Raml Al-Aali, rural migration, acculturation, social identity, urbanization, southern suburbs, Lebanese society, urban anthropology, generations, cultural interaction

مقدمة

شهد العالم خلال العقود الأخيرة ثورة تكنولوجيّة ومعلوماتيّة قلّصت الفجوة بين الريف والمدينة وأسهمت في تسريع حركة انتقال السكان نحو المدن (غالي، 1996). وفي لبنان تحديدًا، أدّت سياسات التنمية غير المتوازنة وإهمال الأرياف إلى تضخّم موجات النزوح الداخلي باتجاه المدن الكبرى. فمنذ منتصف القرن العشرين، انتقل العديد من سكان القرى إلى بيروت طلبًا للعمل والتعليم، خاصة مع تراجع الزراعة وانحصار الفرص الاقتصاديّة في العاصمة. وتضاعفت هذه الهجرة الاضطراريّة خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة (1975–1990) والاجتياحات الإسرائيليّة للجنوب (خصوصًا في 1978 و1982)، إذ تسبّبت تلك الأحداث في تهجير مئات الآلاف من أهالي القرى الجنوبية والبقاعيّة نحو بيروت وضواحيها الآمنة نسبيًا. يقدّر فاعور (1992) أنّ الحرب الأهليّة وحدها أدّت إلى نحو 150 ألف قتيل و100 ألف معاق وآلاف المشرّدين، مما جعل العاصمة وضاحيتها مقصدًا رئيسيًا للنازحين الفارّين من العنف وانهيار الاقتصاد الريفي. وقد كانت ضاحية بيروت الجنوبيّة الملاذ الأبرز لهؤلاء النازحين لقربها الجغرافي وتوفر أراضٍ غير مبنيّة بأكلاف ميسورة أو دون مقابل(فاعور، 1992).

في هذا السياق ظهرت تجمعات سكنيّة عشوائيّة في أحزمة بؤس حول بيروت، ومنها حيّ الرمل العالي الذي تأسس ابتداءً من أوائل السبعينات نتيجة استيلاء متنفّذين على مشاعات تلة رملية تابعة عقاريًا لبلدة برج البراجنة وتوزيعها على النازحين. تجدر الإشارة إلى أنّ أوّل منزل في الرمل العالي بُني عام 1950؛ لكن الحيّ بقي محدودًا (أقل من 20 منزلًا) حتى تسارع النمو بعد 1975 تحت ضغط موجات النزوح الكبيرة خلال الحرب وما تلاها. وبحلول أواخر الثمانينات، غدا الرمل العالي تجمعًا مكتظًا يغلب عليه النازحون من الجنوب والبقاع، بعد أن أدّت الاضطرابات إلى إفراغ العديد من الأحياء المجاورة من سكانها المسيحيين وتحويل النسيج الطائفي في برج البراجنة إلى أكثريّة مسلمة. من جهة أخرى (فرحات، 2018)، تميّزت برج البراجنة تاريخيًا بتنوّعها الاجتماعي والسكاني وباقتصادها الزراعي قبل أن تتحوّل إلى ضاحية مدينيّة مزدهرة تجاريًا لقربها من بيروت ومطارها الدولي (كيّال، 2000). ولذلك اختير حيّ الرمل العالي كنموذج بحثي لدراسة آثار النزوح الريفي الكثيف على إنشاء مجتمع هجيني ريفي/مديني في ضواحي المدينة.

رغم الإشارة إلى بناء أول منزل في الحي عام 1950، إلا أنّ النمو العمراني الحقيقي بدأ مع مطلع السبعينات، حين توزعت المشاعات الرملية على النازحين بدعم من متنفّذين محليين. وقد شكّل الاجتياح الإسرائيلي الأول عام 1978 حافزًا جزئيًا للنزوح، لكن المحطة المفصلية كانت اجتياح 1982 الذي سرّع نمو الرمل العالي بشكل كبير. فقد ارتفعت وتيرة التهجير من الجنوب والبقاع، وتضاعف عدد الوحدات السكنية في الحي خلال خمس سنوات، ليصل إلى أكثر من 500 وحدة بحلول عام 1987 وفق تقديرات بلدية برج البراجنة. ومع نهاية الحرب الأهلية (1990)، كان الرمل العالي قد تحوّل إلى حي مكتظ غير منظم، تتوزع فيه الأحياء الفرعية بحسب الانتماءات المناطقية للعائلات الوافدة. ثم شكّلت سنة 2000 محطة مهمة أخرى، إذ ساهم تحرير الجنوب في إعادة رسم العلاقة بين النازحين وبلداتهم الأصلية، ما انعكس جزئيًا على أنماط البناء والاستثمار في الحي (كالتوسّع العمودي أو تحسين الأبنية القديمة). ويمكن القول إنّ هذه المحطات الثلاث (1975–1982–2000) ترسم منحنى تطوّر الحي كمجتمع عمراني متحوّل بين النزوح والتجذّر وإعادة التموضع (فرحات، 2018).

اعتمد الباحث منهجية الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة من خلال إجراء دراسة ميدانية نوعية قائمة على الملاحظة المباشرة والمقابلات النصف موجهة. وقد تمّ تحليل المعطيات عبر مقاربة سوسيولوجية/أنثروبولوجية تربط بين النظرية والميدان، بعيدًا عن الاقتصار على السرد الوصفي. وجرى توظيف مفاهيم مثل "الثقافة الهجينة"، و"الاندماج الجزئي"، و"إعادة إنتاج الهوية" لتفسير الظواهر الاجتماعية المستخلصة من الحقل.

تمّ اختيار العينة الميدانية وفق تنوّع زمني وجيلي وجندري (رجال ونساء) ومناطقي (جنوب، بقاع، بيروت)، تراوحت أعمارهم بين 25 و75 سنة، مع مراعاة التنوّع الاجتماعي (عمال، تجار، طلاب، ناشطون اجتماعيون). وقد بلغ عدد المقابلات 22 مقابلة شبه موجهة، أُجريت بين شهري تموز وتشرين الثاني 2018 في مواقع مختلفة من الحي (المسجد، السوق، منازل المشاركين). وسُجّلت بإذنهم ثم فُرّغت وجرى تحليلها مضمونياً.

ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول رئيسية تغطي:

(1) قصّة النزوح الريفي وأسبابها وظروف نشأة الرمل العالي؛

(2) مرحلة استقرار الوافدين وتشكّل المجتمع المحلي ومؤسساته في الضاحية؛

(3) الواقع الثقافي في الرمل العالي بما فيه علاقات التعايش والتبادل الثقافي والصراع بين القديم والجديد، ثم تُختتم الدراسة بخلاصة وتحليل نهائي للنتائج.

قصة النزوح الريفي إلى الرمل العالي

إن العودة إلى الخلفيّة التاريخيّة والجغرافيّة لمنطقة الرمل العالي في إطار دراسة ظاهرة النزوح الريفي في لبنان، تكشف أن الزيادة السكانيّة في الأرياف قد تزامنت مع تراجع ملحوظ في فرص العيش الكريم هناك، نتيجة الإهمال المتعمّد لبرامج التنمية الريفية. فقد تركزت سياسات الدولة واستثمارات القطاع الخاص في بيروت، مما أدّى إلى تهميش المناطق الريفيّة وإفقارها اقتصاديًا واجتماعيًا لصالح العاصمة، التي استأثرت بالنصيب الأكبر من الموارد والمشروعات التنموية. لقد شهدت ستينيّات القرن العشرين دخول الرسملة إلى الزراعة وتراجع العديد من الزراعات التقليديّة، ما دفع صغار المزارعين إلى ترك قراهم (ديراني، 1996).

ويُشير ديراني (1996) إلى أنّ ضعف الاستثمار في الأرياف وندرة المشاريع التنمويّة هناك جعلا الهجرة نحو المدينة خيارًا وحيدًا لكثيرين، كذلك أدّى تفاقم المشاكل العشائريّة في بعض مناطق البقاع إلى زيادة الدافع للهجرة إلى بيئات مدينيّة أكثر استقرارًا.

بالإضافة إلى العوامل الاقتصاديّة، برزت عوامل قسريّة نتيجة الصراعات: فخلال حرب 1975–1990 أصبح الأمن مفقودًا في أجزاء واسعة من لبنان، ونزحت عائلات ريفيّة بأكملها إلى بيروت هربًا من المعارك. وكان للقرى الجنوبيّة النصيب الأكبر من النزوح بعد الاجتياحات الإسرائيليّة؛ فعلى سبيل المثال، في اجتياح 1978 وحده اضطر حوالى 220 ألف جنوبي لترك منازلهم. اتجه كثير من هؤلاء إلى الضاحية الجنوبيّة وبالأخص برج البراجنة، حيث توفرت أراضٍ غير مبنيّة يمكن الإقامة فيها بتكاليف زهيدة مقارنة بأسعار العاصمة. يبيّن فاعور (1992) أنّ موقع لبنان المحاذي لفلسطين

المحتلّة جعل قرى الجنوب خطوط مواجهة، فتعرّضت لاعتداءات متكررة أفقرت أهلها ودمرت بنيتها، مما فاقم تيار النزوح نحو بيروت(فاعور، 1992).

كل هذه العوامل المجتمعة – الاقتصاديّة، الأمنيّة، والسياسيّة – تداخلت في خلق موجات هجرة داخليّة ضخمة، يصعب فصل تأثير عامل عن آخر فيها.

إن العودة إلى الخلفيّة التاريخيّة والجغرافيّة لمنطقة الرمل العالي في إطار دراسة ظاهرة النزوح الريفي في لبنان، تكشف أن الزيادة السكانيّة في الأرياف قد تزامنت مع تراجع ملحوظ في فرص العيش الكريم هناك، نتيجة الإهمال المتعمّد لبرامج التنمية الريفية. فقد تركزت سياسات الدولة واستثمارات القطاع الخاص في بيروت، مما أدّى إلى تهميش المناطق الريفيّة وإفقارها اقتصاديًا واجتماعيًا لصالح العاصمة، التي استأثرت بالنصيب الأكبر من الموارد والمشروعات التنموية. لقد شهدت ستينيّات القرن العشرين دخول الرسملة إلى الزراعة وتراجع العديد من الزراعات التقليديّة، ما دفع صغار المزارعين إلى ترك قراهم. ويُشير ديراني إلى أنّ ضعف الاستثمار في الأرياف وندرة المشاريع التنمويّة هناك جعلا الهجرة نحو المدينة خيارًا وحيدًا لكثيرين (ديراني، 1996). كذلك، أدّى تفاقم المشاكل العشائريّة في بعض مناطق البقاع إلى زيادة الدافع للهجرة إلى بيئات مدينيّة أكثر استقرارًا.

بالإضافة إلى العوامل الاقتصاديّة، برزت عوامل قسريّة نتيجة الصراعات: فخلال حرب 1975–1990 أصبح الأمن مفقودًا في أجزاء واسعة من لبنان، ونزحت عائلات ريفيّة بأكملها إلى بيروت هربًا من المعارك. وكان للقرى الجنوبيّة النصيب الأكبر من النزوح بعد الاجتياحات الإسرائيليّة؛ فعلى سبيل المثال، في اجتياح 1978 وحده اضطر حوالى 220 ألف جنوبي لترك منازلهم. اتجه كثير من هؤلاء إلى الضاحية الجنوبيّة، وبالأخص برج البراجنة، حيث توفرت أراض غير مبنيّة يمكن الإقامة فيها بتكاليف زهيدة مقارنة بأسعار العاصمة. وقد بيّن فاعور أنّ موقع لبنان المحاذي لفلسطين المحتلّة جعل قرى الجنوب خطوط مواجهة، فتعرّضت لاعتداءات متكررة أفقرت أهلها ودمرت بنيتها، مما فاقم تيار النزوح نحو بيروت (فاعور، 1992). كل هذه العوامل المجتمعة – الاقتصاديّة، الأمنيّة، والسياسيّة – تداخلت في خلق موجات هجرة داخليّة ضخمة، يصعب فصل تأثير عامل عن آخر فيها.

مرحلة الاستقرار والاندماج في مجتمع الضاحية

شهدت عملية استقرار الوافدين في حيّ الرمل العالي تطوّرًا تدريجيًا لمجتمعهم المحلي ضمن الضاحية الجنوبية، حيث تمكّن النازحون، رغم انتقالهم إلى بيئة حضرية مغايرة، من إعادة بناء شبكاتهم الاجتماعية بطريقة تحاكي الروابط التي كانت تجمعهم في قراهم الأصلية. وقد أسهم هذا التشكيل الشبكي في تعزيز إحساسهم بالأمان والانتماء داخل الفضاء المديني الذي بدا في البداية غريبًا عنهم. شكلت الروابط القرابيّة والمناطقيّة عماد التنظيم الاجتماعي داخل الحي؛ فقد تجمع أبناء القرية أو العشيرة الواحدة في أحياء فرعيّة متقاربة طلبًا للدعم المتبادل. هذا التصرف العفوي منح الوافدين شبكات أمان اجتماعي ساعدتهم على مواجهة صعوبات الإقامة والعمل، وجعل الحيّ امتدادًا لقريتهم الأصلية في نظرهم. وكما يصف خوري (1975)، فإن المهاجر الريفي حين يسكن بين أبناء ثقافته ذاتها يشعر كأنه "في بيته أو بين أهله" ويستفيد من إرثه الثقافي لتعزيز ثقته بنفسه وبناء علاقات مطمئنة. وهكذا صار الرمل العالي "قرية في مدينة" بكل معنى الكلمة: جماعات ريفيّة تعيش متجاورة في نطاق مديني ولكن بروح تضامن وتلاحم ورثتها عن مجتمعها القروي .

مع مرور الوقت، بدأت ملامح الحيّ تتبلور ككيان اجتماعي مستقر. يلفت الباحث إلى جملة من علائم الاستقرار المكاني والمجتمعي التي ظهرت مع تجذّر وجود الوافدين، وأبرزها تأسيس أماكن العبادة والدفن، فضلاً عن المقاهي والمدارس والأسواق المحلية. فعلى الصعيد الديني، سارع السكان إلى بناء مسجد وحسينيّة في أوائل الستينات لتوفير فضاء لممارسة شعائرهم واجتماعاتهم. وقد لعب رجال الدين والشخصيات البارزة – أمثال المفتي الشيخ عبد الأمير قبلان – دورًا داعمًا في إنشاء نادي حسيني الإمام الحسين ومسجد بجواره عام 1963، عبر توفير الدعم المادي والإرشاد لحل المشكلات الاجتماعيّة في الحي. تُوّجت هذه الجهود بافتتاح مبنى الحسينيّة والمسجد اللذَين أصبحا مركزين رئيسيين لنشاطات الوافدين الدينيّة والاجتماعيّة، مما عزّز إحساس الجماعة بامتلاك مؤسّسات خاصة بها داخل المدينة (فرحات، 1993). ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أنشأت لاحقًا عائلات كبيرة كعائلة المنذر حسينيّة خاصة بها في وسط الحي (2009) لتلبية حاجات سكان منطقتها في إحياء المناسبات وإقامة مجالس العزاء. هذه الصروح الدينيّة لم تكن مجرد أماكن عبادة، بل تحوّلت إلى مراكز اجتماعيّة تجمع مختلف مكوّنات الحي وتوطّد العلاقات بينهم.

وعلى المنوال نفسه، سعى الوافدون إلى تأمين حقهم في دفن موتاهم محليًا كدليل على رسوخ وجودهم. تقليديًا كان الجيل الأقدم يحرص على إعادة جثمان المتوفّى إلى قريته الأصلية إكرامًا له وارتباطًا بجذوره العائليّة. لكن مع ارتفاع أعداد الوافدين واستحالة نقل الجميع إلى القرى البعيدة، نشأت مطالب بالسماح لهم بالدفن في مقبرة برج البراجنة. هكذا خاض الوافدون نزاعًا مدنيًا مع الأهالي الأصليين لانتزاع حق استخدام مدفن الرمل المحلي، ونجحوا مع الزمن في اعتماد تلك المقبرة لدفن موتاهم بينما بقيت مقبرة الرادوف حكرًا على عائلات البرج القديمة. يعلّق ديراني (1996) بأن وجود المقبرة الخاصة بكل جماعة مؤشر جوهري على توطّنها النهائي في المكان. واليوم، ورغم زوال العوائق الجغرافيّة بعد تحرير الجنوب (2000)، ما زالت عائلات كثيرة من الجيل الحديث في الرمل العالي تفضّل دفن موتاها في مسقط رأسها بالقرية، مما يعكس استمرار حالة الولاء الموزّع بين موطن الإقامة الحالي والموطن الأصلي (عبود، مقابلة، 15-12-2018).

إلى جانب البعدين الديني والرمزي، ازدهرت معالم الحياة الاجتماعيّة اليوميّة في حيّ الرمل العالي تدريجيًا، بإنشاء فضاءات للتلاقي والترفيه والتعليم. فعلى سبيل المثال، انتقلت معهم تقاليد الساحة القرويّة حيث اعتاد رجال القرى الاجتماع عصرًا للتسامر ولعب بعض الألعاب الشعبيّة. لم تكن المقاهي منتشرة في مجتمع برج البراجنة التقليدي قبل الخمسينات، ولكن توافد الفلسطينيين إلى المخيّم واللبنانيين الوافدين أدّى إلى ظهور المقاهي كأماكن تجمع جديدة. في البدء تجنّب أبناء الريف ارتياد المقاهي نظرًا لنظرتهم المحافظة بأنها أماكن لهو غير مقبول، ففضّلوا التجمّع أمام المنازل أو في ساحات الحي. إنما مع الوقت واختلاط الوافدين بالمدينة، ازدهرت المقاهي ودخلت أحياء الرمل على نطاق واسع منذ التسعينات. تنوّعت أنماطها بين مقاهي الإنترنت التي اجتذبت الشباب لمشاهدة مباريات كرة القدم، ومقاهي النرجيلة التي أصبح تدخينها ظاهرة اجتماعيّة تشمل حتى الفتيات بعد أن كانت مستغرَبة في البداية. وبات المقهى مشروعًا اقتصاديًا مفضلاً لكثير من الوافدين لما يتيحه من مردود ولأنه يوفّر ملتقى اجتماعيًا مفتوحًا للجميع.

وفي ميدان التعليم، سعى الوافدون بدايةً إلى إنشاء مدارس خاصة بأبنائهم لتعويض نقص المدارس الرسميّة في المنطقة. افتُتحت عدة مدارس أهلية في برج البراجنة خلال الخمسينات والستينات، بعضها على يد أشخاص من السكان الأصليين وأخرى بمبادرات وافدين (مثل مدرسة الآداب التي أسسها أحد آل بربر من الوافدين، ومدرسة الأهلية أسسها أحمد برو من جبيل). لكن الحدث الأبرز كان افتتاح الثانوية الرسميّة للبنين عام 1964 في برج البراجنة وثانوية البنات عام 1979. مع

توسّع التعليم الرسمي، انخرط أبناء الوافدين بأعداد كبيرة في المدارس الحكوميّة لعدم قدرة الكثيرين على تحمّل أقساط الخاص. وقد شكّلت المدرسة الرسميّة مساحة اندماج اجتماعي مهمّة: فصفوفها كانت مختلطة تضم أبناء البرج الأصليين إلى جانب أبناء الجنوب والبقاع وحتى بعض التلامذة المسيحيين من المناطق المجاورة. خلقت هذه البيئة تجربة تواصلية جديدة للأجيال الشابة، أذابوا فيها جانبًا من الحواجز المناطقية والطائفية عبر الزمالة الدراسيّة والأنشطة المشتركة (شداد، مقابلة، 19-02-2019).

. ويشير الباحث إلى أن هذه المرحلة التعليمية أنتجت مجتمعًا شبابيًا مثقفًا ومنفتحًا تجاوز إلى حد ما الانقسامات التقليدية، وساهم في ظهور روابط مدينية حديثة قائمة على الفكر والقيم المشتركة أكثر من انتماءات القرية أو الطائفة. ويمكن القول إن انتشار التعليم والأحزاب غير الطائفية آنذاك أسهم في ترسيخ "الملمح المديني" لدى جزء من أبناء الرمل العالي، عبر إضعاف عصبيّاتهم الضيقة وتطوير وعيهم المديني الوطني.

أما اقتصاديًا، فقد استطاع الوافدون تدريجيًا أن يشقّوا لأنفسهم مكانًا في النشاط التجاري ضمن الضاحية. في البداية عمل الكثيرون منهم كعمّال وأجراء في مرافق قائمة (المرفأ، المطار، معامل الشويفات، الورش الصناعيّة)، أو في مهن بسيطة كالباعة المتجولين والمزارعين لدى عائلات برج البراجنة. لكن مع استقرار الجيل الثاني، برزت مبادرات فرديّة لإنشاء مصالح خاصّة في الرمل العالي. فتح أبناء الوافدين دكاكين للبقالة واللحوم والخضار وأفران ومعامل حرفيّة صغيرة خدمت أهل الحي والمناطق المجاورة. اشتهرت بعض العائلات بأعمال معيّنة؛ على سبيل المثال، تخصّص بعض أبناء البقاع في تجارة الوقود (مازوت)، بينما اشتهر جنوبيّون بفتح محلات أحذية وملابس (نشأ سوق الأحذية في أحد شوارع الرمل منذ منتصف الثمانينات). كذلك انتشرت في الحي ورش تصليح السيّارات وباقي المهن الصناعيّة التي نقلها الوافدون معهم، حتى غدا شارع عين الدلبة مركزًا يعجّ بكراجات الميكانيك والكهرباء ومحلات قطع الغيار تديرها عائلات مثل آل عيتاوي وآل حلّوم وغيرهم. وبحلول مطلع الألفية، تأسست خلية اقتصاديّة ناشطة في الرمل العالي تشمل مختلف الخدمات من مطاعم ومحطات وقود وصالات أفراح حديثة على أطراف الحي. هذا التطوّر مكّن مجتمع الوافدين من منافسة الاقتصاد المحلي القديم في برج البراجنة بل والتفوّق عليه، إلى درجة أنّ الوافدين أضحوا عماد الحياة الاقتصادية والسياسية في المنطقة. فهم يملكون نسبة كبيرة من المؤسسات التجاريّة في سوق برج البراجنة الشعبي أيضًا، حيث حرص العديد منهم على شراء أو استئجار محالّ هناك وتعزيز ازدهار السوق مما عاد بالنفع على الجميع. ويُذكر أن سوق برج البراجنة اليوم يعدّ من أشهر أسواق الضاحية لرخص أسعاره وتنوع بضائعه بفضل المنافسة التي ساهم فيها التجار الوافدون (برو، مقابلة، 8-2-2019).

رغم هذا الاندماج الاقتصادي الواضح، يبيّن الباحث أن الاندماج الاجتماعي ظلّ محدودًا نسبيًا بين الوافدين والسكان الأصليين للبرج. فقد استقبل أهالي برج البراجنة أوائل الوافدين بقدر من التحفظ؛ فهؤلاء النازحون لم يهدّدوا التوازن الديمغرافي حينها وكانوا يساهمون كيد عاملة زراعيّة، لذا حصل تعايش دبلوماسي بينهم وبين الأهالي. لكن كان هناك خط فاصل: حرص سكان البلدة القدامى على إبقاء الوافدين خارج أحيائهم السكنيّة الأساسية منعًا لاختلاط كامل. ويُعزى ذلك إلى متانة البنى الاجتماعيّة التقليدية عند أهالي البرج وتمسّكهم بعاداتهم، مما شكّل حاجزًا أمام تسرب الغرباء إلى نسيجهم. كما لعبت اعتبارات سياسيّة دورًا؛ حيث قاوم وجهاء البلدة نقل قيود نفوس (سجلات الأحوال الشخصية) الخاصة بالوافدين إلى نفوس برج البراجنة منعًا لمنحهم صفة المقيمين رسميًا. على النقيض، كانت بلدات مجاورة كالغبيري أكثر تساهلًا في

هذا الأمر، فشهدت إغراقًا ديمغرافيًا بالنازحين المسجّلين فيها. أيضًا، اعتزّ أهالي البرج بهويّتهم كجزء من مجتمع ساحل المتن الجنوبي التاريخي ولم يرغبوا بذوبانها في كيان الضاحية المستحدث. لذلك استمرّ نوع من الازدواجيّة: علاقات مجاملة ومشاركة محدودة في الأفراح والأتراح بين الطرفين، دون اندماج عائلي تام. فعلى سبيل المثال، حصلت حالات زواج لشباب وافدين من فتيات من عائلات برج البراجنة الأصلية، لكن العكس (شاب من البرج يتزوّج فتاة وافدة) كان نادرًا جدًا، مما يدل على بقاء الزواج بين المجموعتين استثناء لا قاعدة. كذلك فضّل كثير من أهالي البرج تأجير بيوتهم للجنوبيين دون البقاعيّين، تحت وطأة الصورة النمطيّة التي تعتبر أبناء البقاع عشائريين عنيفين يصعب التعامل معهم، مقابل صورة أبناء الجنوب الليّن المتحضّر. وقد لخّص قول شائع في المنطقة هذا الانطباع: "بقاعي ما تراعي، وقَبْلاوي (جنوبي) ما تآوي" – أي لا تأمن البقاعي ولا تؤوِي البعلبكي في منزلك، بينما الجنوبي أهون شرًا. مثل هذه المواقف المتبادلة خفتت حدّتها مع الأجيال الجديدة لكنها بقيت حاضرة في الذاكرة الجماعيّة للجماعتين (شحيمي، مقابلة، 23-12-2018).

بالمقابل، أدى انخراط الوافدين الكثيف في الأحزاب السياسيّة الناشطة في الضاحية خلال الثمانينات إلى تعقيد العلاقة بعض الشيء. فهذه الأحزاب – التي أصبح الوافدون عمودها الفقري – خاضت نزاعات مسلّحة في إطار الحرب الأهليّة، مما ولّد توترًا بين بعض قواعدها الشعبيّة والأهالي المحليين غير المنتمين. لكن بعد انتهاء الحرب، شهدت المنطقة انفراجات اجتماعيّة تدريجيّة مع تحسن الأوضاع الاقتصادية والتحاق أعداد متزايدة من أبناء الوافدين والقدماء معًا بوظائف الدولة والقطاع الخاص. كما تفاعلت الأجيال الشابّة في المدارس والجامعات والنقابات وانخرطت في مجتمع مدني أوسع. بحلول التسعينات، برزت بوادر جماعة مدينيّة موحّدة تتجاوز الإنقسامات القديمة: انتشرت حالات إيجار المنازل المختلطة، وحدثت زيجات بين أبناء الوافدين أنفسهم من خلفيات مختلفة وحتى مع أبناء عائلات مدينيّة. ورغم أن ثنائية "ابن الضيعة / الغريب" لم تختفِ بالكامل، إلا أنّ مجتمع برج البراجنة بات أكثر انفتاحًا وقبولًا للتغيير مع الزمن. يدل على ذلك استيعاب البلدة للهيمنة العدديّة للوافدين في مجريات الحياة اليومية، واعتراف السكان الأصليين بدور الوافدين الأساسي في إنعاش الاقتصاد المحلي وفي حماية المنطقة ضمن الأطر الحزبية والسياسية. وهكذا، تلاقت مصالح الجماعتين وتعايشتا بسلام نسبي وإن بقيت بينهما مسافة اجتماعية واضحة (فرحات، مقابلة، 3-12-2018).

الواقع الثقافي في حي الرمل العالي: تباينٌ يغلب التعايش

لا يقتصر فهم الهوية في حيّ الرمل العالي على التوصيف السردي لتغير اللباس أو العادات، بل يتطلب تفكيكًا نظريًا لمفهوم الهوية المركبة(Hybrid Identity)، كما يطرحه هومي بهابها (Bhabha, 1994) في نظريته حول "الفضاء البيني" (*Third Space*). فالسكان هنا لا يذوبون في ثقافة المدينة بشكل كامل، كما لا يحتفظون بهويتهم القروية بشكل صلب، بل يطوّرون نمطًا ثالثًا هجينًا يجمع بين المرجعيتين في هوية انتقالية مرنة.

وبالمثل، فإن عمليات التكيف الثقافي التي شهدها الحي تعبّر عن أحد أشكال التثاقف(Acculturation)، وفق ما يوضحه بيري (Berry, 2005)، الذي يميّز بين أربعة أنماط للتثاقف: الاندماج، الانفصال، التهميش، والتماثل. ويمكن تصنيف سكان الرمل العالي ضمن نموذج "الاندماج الانتقائي"، حيث يحتفظ الأفراد بعناصر من ثقافتهم الأصلية (الزي، اللغة، الطقوس)، ويختارون في الوقت نفسه عناصر جديدة من الثقافة الحضرية (أنماط التعليم، اللباس، الأنشطة الاقتصادية).

هكذا، فإن الهوية الثقافية في الرمل العالي لا تُفهم كمجرد انتماء ثابت، بل كنتاج لعملية تفاوض مستمر بين الريف والمدينة، بين الذاكرة والواقع، وبين الأجيال المتعاقبة. ومن ثم، فإن ما يبدو ظاهريًا كتباين ثقافي هو في الحقيقة تجلٍ لحالة تراكب هوياتي ناتجة عن ظروف النزوح والانغماس التدريجي في فضاء حضري معقّد.

لقد أفرز التفاعل الثقافي بين الوافدين الريفيين والبيئة المدينيّة المضيفة في حيّ الرمل العالي تحولات ملموسة في العادات والتصورات عبر الأجيال المتعاقبة، حيث أدّت عمليات التثاقف والتكيف إلى نشوء ثقافة هجينة تجمع بين الريفي والحضري في آنٍ معًا. فرغم الفوارق الثقافية الواضحة بين نمط الحياة القروي ومتطلبات المدينة، تكرّس نمط من التعايش والتبادل الثقافي الذي أعاد تشكيل ملامح المجتمع المحلي ليصبح مزيجًا غنيًّا بالعناصر الموروثة والمكتسبة. ويشير الباحث إلى أن الحدود الفاصلة بين الثقافتين قد بدأت تتلاشى تدريجيًا تحت تأثير عدة عوامل، من بينها التفاعل اليومي في فضاءات الحياة المشتركة مثل الحيّ ومكان العمل والمدرسة، إضافة إلى انتشار التقنيات الحديثة ووسائل الإعلام في معظم المنازل، فضلاً عن التحسّن الملحوظ في المستويات التعليمية والمعيشية. ونتيجة لذلك، بات مألوفًا لدى سكان الرمل العالي تبنّي مظاهر الحياة المدينية في أنماط لباسهم، وعاداتهم الغذائية، وتنظيم فضاءاتهم السكنية، دون أن يتخلّوا في الوقت ذاته عن جذورهم الريفية العميقة التي ما تزال حاضرة في تفاصيل حياتهم اليومية (العنان، مقابلة، 22-11-2018).

من أبرز مظاهر هذا التبادل الثقافي: تغيّر مفاهيم الزواج والأسرة لدى أبناء الوافدين مقارنةً بجيل آبائهم. تذكر إحدى المقابلات كيف كانت الفتاة في القرية تُخطب بسن مبكرة دون أخذ رأيها وتُزفّ للعريس الذي قد تراه أول مرة يوم عقد القران. تروي الحاجة أم محمد فرحات (وهي من الجيل الأقدم للوافدين) أنه في صباها زوّجها أهلها بقرار منهم لشاب من قرية مجاورة ولم تَرَه إلا يوم كتب الكتاب، ثم انتقلت للسكن معه في قريته قبل أن يلحقا لاحقًا بالعيش في الرمل العالي. هذا النموذج كان سائدًا في الجنوب والبقاع حيث الزواج ترتّبه العائلات وفق تقاليد صارمة، بينما في مجتمع برج البراجنة الأصلي كانت الفتيات يتمتعن بهامش أكبر من الحريّة في اختيار الزوج ومتابعة الدراسة والخروج إلى السينما مثلاً منذ تلك الفترة. أما اليوم، فقد اقتربت عادات الوافدين كثيرًا من العادات المدينيّة الحديثة: فأصبحت لقاءات التعارف المباشر بين الشبان والفتيات ممكنة (زمالة دراسة أو عمل، لقاءات عبر الإنترنت ووسائل التواصل)، وبات قرار الزواج قائمًا على قبول الشاب والفتاة لبعضهما أكثر من ترتيبات الأهل. كما ارتفع متوسط سن الزواج لدى بنات الجيل الجديد من الوافدين بسبب حرصهن على إكمال التعليم الجامعي ودخول سوق العمل، مما أدى إلى تأخير الارتباط لبعد العشرينات خلافًا لما كان عليه الوضع في القرية. وتشير إحدى الشابات (25 عامًا) في المقابلات إلى أنها "تنتظر الشريك المناسب الذي يكون سندًا لها في متابعة اختصاصها في الطب"، مما يعكس تغير تطلعات بنات الرمل العالي نحو دور أكثر استقلاليّة وطموحًا (عساف، مقابلة، 20-11-2018).

تبدّلت أيضًا طقوس حفلات الزفاف بين الماضي والحاضر. في القرى البعلبكيّة والجنوبية كان العرس يمتدّ لعدة أيام يسبقها أسبوع من السهرات في بيت العروسين، وتتخلله عادات تراثيّة مثل ليلة الحنّاء حيث ترتدي العروس الزي التقليدي وتُقام عراضة يغني فيها الأقارب المواويل وتُقدّم طبخة خاصة تسمى كبة العروس. كما كانت الدبكة البعلبكيّة ورقصات الخيل والزفّة بالسيف من واجبات العرس التراثي، ويُختم الاحتفال بحفل الزفاف الرسمي حيث تظهر العروس بالفستان الأبيض ويشارك الجميع بالرقص والغناء وتقديم الضيافة على مدى ليلة كاملة. هذه المظاهر الشعبية بدأت بالاختصار تدريجيًا. فاليوم غالبًا ما يُختزل العرس بيوم واحد تُرسل فيه بطاقات الدعوة أو حتى دعوات إلكترونيّة عبر فيسبوك، ويُقام الحفل في

صالة أفراح مقسّمة لقسم للنساء وآخر للرجال تماشيًا مع التقاليد الدينيّة التي تفضّل عدم الاختلاط. انحسرت بعض التقاليد القديمة كركوب العريس على حصان والتنقل به (إلا نادرًا في بعض الأعراس التراثيّة)، وبالمقابل حافظت الزفّة على وجودها لكن بطابع حديث: فلا تزال الزغاريد ولباس الراقصين الفلكلوري حاضرة، إنما امتزجت رقصات الدبكة التقليدية برقصات دخيلة كالرقص الشرقي والسلو والتانغو حسب ذوق العروسين. يرى بعض كبار السنّ أن زفّة اليوم تحوّلت إلى استعراض بهلواني أكثر منها تحدّي ورهجة كما في الماضي، حيث أصبح النفخ بالنار ورفع البيارق أمورًا شائعة تفقد الزفّة أصالتها (أبو محمد حميّة، مقابلة، 2019). هكذا يظهر تداخل القديم والجديد في حفلات الزواج، بين الحرص على عناصر الفولكلور من جهة وتبنّي مظاهر الحداثة من جهة أخرى.

وفيما يتعلّق بمؤسسة الأسرة، تشكّل العائلة الريفيّة التقليديّة وحدة اجتماعية كبيرة تقوم على الامتداد والعصبيّة العشائريّة. يُبيّن نصر (دون تاريخ) أن الريفيّين عامةً يميلون للأسرة الممتدة التي تضم الجدّ والأبناء والأحفاد ضمن منزل واحد، ويكون فيها للأب سلطة مطلقة يعاونه الابن البكر، بينما تتوزع الأدوار على بقية الأفراد وفق معايير العمر والجنس. وقد حمل أبناء البقاع منهم خصوصًا هذا الميل العشائري القوي وكثرة الإنجاب (أحيانًا 10-12 ولد للأسرة) إلى حيّ الرمل العالي في البداية. لكن عوامل المدينة الاقتصادية والاجتماعية سرعان ما فرضت تحولًا في بنية الأسرة هناك: فمع ارتفاع كلفة المعيشة وانشغال الأهل بالعمل وضعف القدرة على تأمين مسكن واسع، اتجهت الأسر النوويّة الصغيرة لتصبح النمط الغالب. انخفض معدّل الولادات بشكل ملحوظ واقتصر معظم الأزواج على عدد أقل من الأطفال قياسًا بالماضي. كذلك تراجع نسبيًا التمييز بين الذكور والإناث في التربية، فأصبحت الفتاة في عائلة الوافدين تخرج للتعليم والعمل والترفيه أسوةً بالشاب، ولم تعد محصورة في البيت كما كانت جدّاتها. تغيّرت أيضًا علاقة الجيل الجديد بكبار السنّ؛ فبعدما كان رأي الجد أو الجدة مقدسًا لا يُردّ في الأمور العائليّة، بات الآباء والأبناء يتخذون قراراتهم بشكل أكثر استقلاليّة، ولم يعد لكبار السن سطوة كاملة على توجيه حياة الأسرة. تصف إحدى الأمهات الفرق بقولها: "ابنتي عمرها 15 سنة تناقشني أنا وأباها باستمرار وتختار مدرستها وصديقاتها بنفسها؛ أما أنا حين كنت بعمرها كان عيبًا أن أرفع رأسي بوجه أمي أثناء حديثها معي!". يعكس هذا القول مدى التحوّل في أساليب التنشئة الاجتماعيّة والقيم بين جيل الآباء المتمسّك بتقاليد الطاعة والجماعة، وجيل الأبناء المعتاد على حريّة أكبر وفرديّة أوضح في نمط الحياة (نصر، www.aranthropos.com).

من جهة أخرى، أثّر التفاعل الثقافي في المطبخ والأكلات لدى المجتمع الهجين في الرمل العالي. فقد جلب الوافدون معهم أطباقهم القرويّة المميزة وعرّفوا بها سكان المدينة، كما تعرّفوا هم بدورهم على أطعمة المدينة وأدخلوا بعضها إلى موائدهم. تشير إحدى السيّدات المهجّرات من جنوب لبنان إلى حنينها لنكهة الفراكة الجنوبيّة (وهي لحم مدقوق مع برغل وبهارات) ورائحة الزعتر والزيتون البلدي التي اعتادت تذوّقها من حاكورة منزلها في القرية. كذلك بقيت المونة الجنوبيّة حاضرة في بيوت الوافدين، من دبس الزيتون والتنباك (التبغ) المجفف وغيرها. في المقابل، حمل البقاعيّون أكلات خاصة بهم مثل المخلوطة (خليط حبوب مع القاورما) والرشتا (شوربة العجين والعدس)، غير أنّ هذه الأطباق قلّ طلبها في المدينة فلم تعد تطبخها الأجيال الشابة كثيرًا. لكن ما زالوا ينتجون مأكولات preserved كالكشك (برغل مجفف مع لبن) والمقدوس (باذنجان محشي بالجوز) ويحفظونها في جرار لفصل الشتاء، بل قامت بعض نساء الوافدين ببيع منتجاتهن القرويّة للأسر المدينيّة في البرج لتحسين دخل الأسرة (منصور، مقابلة، 8-10-2019)..

وفي الوقت نفسه تعرّف الوافدون عبر جيرانهم على مأكولات بيروتيّة لم تكن مألوفة في قراهم، مثل الأرضي شوكي وطبق الملوخية والحلوى البيروتيّة الشهيرة المفتقة (وهي حلوى من الأرز والعقدة الصفراء). بل إن المفتقة أصبحت جزءًا من تقاليد بعض عائلات الوافدين أيضًا لتحضيرها في مواسم محددة. كذلك تذوّق القرويون لأول مرة ثمار البحر في المدينة (الأسماك والمأكولات البحرية كانت نادرة في القرى البعيدة عن الساحل). مع انشغال نساء الوافدين بشكل أكبر بالوظيفة خارج المنزل في العقدين الأخيرين، وانتشار الوجبات السريعة وأطعمة المطاعم كالبيتزا والبرغر، قلّ إعداد بعض الأطباق الريفيّة التي تتطلب وقتًا وجهدًا طويلين (كاليخنة والمحاشي). ومع ذلك، ما زالت الأكلات التراثيّة الثقيلة تطبخ في المناسبات والأعياد لدى معظم الأسر، حفاظًا على النكهة التقليدية والهوية الخاصة بالمائدة العائليّة (منصور، مقابلة، 8-10-2019).

وفي الملبس والمظهر، شهد المجتمع تحوّلات لافتة تدل على التثاقف. وصلت نساء الوافدين إلى الضاحية في الستينات وهنّ يرتدين الفستان الطويل مع بنطال قماشي (يطلق عليه "كشكش" في أطرافه) تحت الفستان، وعلى الرأس منديل يُعرف بـ«الطيّار»؛ أما كبيرات السن فكنّ يلففن منديلًا أبيض على رؤوسهن (زراقط، مقابلة 2019). تعرّفت هؤلاء النساء بسرعة على أزياء المدينة الأكثر حداثة في تلك الفترة: التنّورات المكسرّة والفساتين القصيرة وحقائب اليد والمعاطف الفروية، وبدأن باعتماد بعضها تدريجيًا. ثم جاء المد الديني في أواخر السبعينات والثمانينات ليعيد تشكيل موضة النساء، فالتزمت الغالبيّة بارتداء الحجاب الشرعي وأحيانًا العباءة السوداء الواسعة اتباعًا للتقاليد الإسلاميّة. لكن حتى الحجاب شهد تطورًا في شكله مع الزمن؛ إذ ظهرت نماذج حديثة متأثرة بالموضة الغربيّة من حيث الألوان الزاهية والتنسيق مع الثياب الضيقة، إلى جانب استمرار البعض على النمط المحافظ بالعباءة السوداء. كذلك برز اختلاف في مظهر الشابات: فبينما تخلّت كثيرات عن غطاء الرأس كليًا وواكبن الموضة العالميّة في قصات الشعر والماكياج، اختار أخريات الجمع بين الحجاب والزينة الحديثة كارتداء البنطال الضيّق تحت المعطف الطويل واستخدام مساحيق التجميل. هذا التنوع في الأزياء يعكس امتزاجًا بين التأثير الديني المحافظ والتأثير المديني المنفتح. وقد وثّق البحث صورًا لنموذج حجاب البقاع الشمالي القديم مقابل الحجاب العصري الحالي لإبراز هذا التغيّر (السباعي، مقابلة، 11-10-2019).

أما ملابس الرجال، فتحوّلت من اللباس الريفي التقليدي إلى اللباس العصري على نحو شبه تام خلال جيلين. دخل أوائل الوافدين وهم يرتدون الشروال الفضفاض والقمباز والحطّة والعقال – وهي ملابس العمل الريفي ورمز وجاهة الرجل القروي – وكان إطلاق الشوارب الكثيفة وحمل العصا (الخيزرانة) وربط الزنّار على الخصر دلالات على رجولة وهيبة صاحبها. هذه الهيئة سرعان ما بدأت بالاختفاء مع احتكاك القادمين بثقافة المدينة: انتشر ارتداء البنطال والقميص بين الرجال منذ السبعينات، ثم ظهر ارتداء البدلات الرسمية وربطات العنق لدى من حصلوا على وظائف مكتبية. وبحلول التسعينات، بات المظهر السائد لرجال الرمل العالي لا يختلف عن سواهم من رجال المدينة في اللباس العصري، مع استثناءات محدودة لكبار السن الذين بقوا على طربوشهم وشروالهم. جدير بالذكر أن مظاهر أناقة الرجل تغيّرت نوعيًا: فبعدما كان الاعتناء بالمظهر مقصورًا على تعطير الثياب بالعطر العربي وتهذيب الشارب وتلميع الحذاء، بات الرجال والشباب يعتمدون عناصر جديدة مثل الساعة الفاخرة والمسبحة الثمينة والخاتم الكبير (خاصةً الملتزمين دينيًا). وظهرت بين بعض الشبان قصّات شعر «على الموضة» مستوحاة من المشاهير الرياضيين والفنانين، بما في ذلك إطالة الشعر للأكتاف وربطه (وهي تسريحة غير معهودة قديمًا)، أو حلاقة أجزاء من اللحية بشكل مبتكر. هكذا لحقت موضة شباب الرمل العالي بركب الموضة المحليّة والعالميّة تقريبًا، في دليل آخر على انخراط الجيل الجديد في الثقافة المدينيّة الحديثة. ومع ذلك، ظلّ لباس

المناسبات التراثي حاضرًا أحيانًا، خصوصًا في الاحتفالات التراثيّة حيث يرتدي البعض الشروال والطربوش لإبراز فخرهم بأصولهم الريفيّة. وقد أشار الباحث إلى صورة لرجل من أوائل الوافدين (صلاح حميّة) يظهر فيها بالقمباز والطربوش، مقابل صورة حديثة لحفيده بلباس معاصر، تجسّد الفارق بين الجيلين (رحال، مقابلة، 02-10-2018).

جانب آخر للتثاقف هو موضوع اللهجات واللغة. رغم إقامة الوافدين لعقود في بيروت، احتفظ كثيرون منهم بلهجاتهم القرويّة المميزة التي تكشف من أي منطقة جاءوا. فاللبناني البعلبكي مثلاً يُعرف من طريقة لفظه لحرف القاف بشكل همزة أو لفظ الطاء تاء (يقول "تريق" بدل "طريق")، ومن استخدامه مصطلحات محليّة لا يفهمها إلا أبناء منطقته (مثل "جُوهَت الله عليك" أي وحياتك، أو "هَكْجين" بمعنى قريب جدًا). أما اللبناني الجنوبي فيميل لكسر أواخر الكلمات ومدّ بعض الأصوات (يقول "نحِن" بدل "نحن"). هذه الفروق اللغوية استمرت بين سكان الرمل العالي، حيث بقيت اللهجة علامة انتماء ثقافي فرعي تُظهر المنطقة الأصلية لكل مجموعة. ورغم اندماج الأجيال الناشئة بشكل أكبر في مجتمع المدينة وتعلّمهم لنمط اللغة المحلي، فإن الكثيرين منهم يتنقلون بسلاسة بين لهجة البيت (الريفية) ولهجة الشارع أو العمل (القريبة من لهجة بيروت). إلى ذلك، أدّى انتشار الإعلام المرئي والاغتراب إلى دخول مفردات أجنبية (فرنسيّة وإنكليزيّة) في لغة الحديث اليومي للشباب. باتت عبارات مثل "أوكي" و"ميرسي" و"هاي" شائعة في الكلام، ما يعكس تأثير العولمة الثقافيّة حتى على مستوى المحكيّة المحليّة. لكن يمكن القول إن اللهجة بقيت من آخر قلاع الهوية الريفيّة التي تشبّث بها الوافدون كرمز لانتمائهم ضمن مجتمع هجيني (زراقط، مقابلة، 6-1-2019).

رغم ما سبق، يُظهر البحث أنّ الوافدين لم يذوبوا كليًا في مجتمع المدينة ثقافيًا، بل خاضوا صراعًا هويّاتيًا بين تبنّي معالم الحياة الجديدة وبين التمسّك بالموروث. فكثير منهم يعتبر نفسه حتى اليوم "ابن القرية" وإن عاش وعمل في بيروت لعقود، ويخطط للعودة في نهاية المطاف إلى بلدته الأصلية. يقول أحد القدماء (أبو محمد حمود) :"صحيح أني وُلدت وتعلّمت وتوظّفت في الضاحية، لكنني ابن الجنوب، وبس موت وصّيت يدفنوني بالجنوب". هذه العبارة تختزل عمق ارتباط الوافدين بجذورهم على الرغم من نشأتهم المدينيّة. فعندما شعروا بأن منظومة حياتهم الاجتماعية في المدينة تهدّد بطمس هويتهم الأصيلة، كانوا يرتدّون غريزيًا إلى العصبيّة العائليّة والعشائريّة وإلى عاداتهم الخاصة كآليّة دفاع. ظهر ذلك في استمرار الزواج ضمن نطاق العائلة الموسّعة أو أبناء الضيعة قدر الإمكان، وفي حلّ النزاعات الكبيرة أحيانًا بالاحتكام إلى قانون الثأر العشائري بدل القانون المدني (حمود، مقابلة، 5-1-2019).

لا بد من الإشارة إلى حوادث دامية وقعت في الثمانينات ثم في 2002 بين عائلتين كبيرتين (آل زين الدين وآل العزير ثم آل المولى والعزير) في منطقة عين الدلبة أخذ فيها الأخذ بالثأر دور البطولة. ففي إحدى القضايا تطوّر إشكال فردي إلى مقتل شاب، فقامت عشيرة القتيل بإعدام الجاني علنًا على قبر فقيدهم وسط إطلاق النار ابتهاجًا بالانتقام، وتكرّر القتل المتبادل حتى تدخّلت القوى السياسيّة والعشائريّة العليا لوقفه. مثل هذه الحوادث جعلت أهالي برج البراجنة يتخوّفون من مصاهرة عائلات بقاعيّة ثأريّة، لكن بالنسبة لأبناء الرمل الوافدين كانت العشيرة مصدر فخر وقوّة وترهيب للخصوم. بهذا المعنى، بقيت الهويّة الفرعيّة (قبليّة أو قرويّة) تطفو على السطح كلّما احتدمت مواجهة أو منعطف اجتماعي حرج، فيظهر التباين الكامن تحت غلالة التعايش اليومي. ومع ذلك، هناك نقاش حول هذا التعايش بالتباين ذاته أفرز حالة ثقافيّة فريدة في برج البراجنة: فقد امتزجت حضارتا الريف والمدينة في حيّ واحد دون أن تذوب إحداهما بالأخرى كليًا. صحيح أنّ البعض يتهم الضاحية بأنّها "تريّفت" نتيجة عادات الوافدين، ولكن في المقابل تمأسست قرى الوافدين وأُدخل عليها الكثير

من مظاهر المدنيّة. لقد تعلّم الوافدون أساليب الحياة المدينيّة وتكيّفوا معها، لكنّهم في الوقت نفسه أعادوا إنتاج ثقافتهم الأصيلة داخل المدينة ومنحوها بعدًا من الحداثة. والنتيجة مجتمع متنوّع الثقافات نجح في إيجاد أرضيّة مشتركة للتعايش، دون أن يتخلّى كل طرف تمامًا عن خصوصيّته (الموسوي، مقابلة، 3-1-2019) .

على صعيد ديناميكية الأجيال، يوضّح البحث أنّ الفوارق الثقافيّة بدت صارخة بين الجيل الأوّل من الوافدين (جيل الآباء والأجداد) والجيلين الثاني والثالث (الأبناء والأحفاد). الجيل الأوّل الذي نزح قبل وخلال الحرب الأهليّة حمل معه إلى المدينة مجتمعه الخاص بأكمله من عادات الضيعة وتقاليدها ولهجتها وحنينه الدائم إليها. رفض هذا الجيل الاندماج التام في حياة المدينة وحافظ على نمط عيشه القروي من حيث اللباس والعلاقات الاجتماعية القائمة على صلة القرابة والتضامن العشائري. لذلك تشكّلت في الرمل العالي تجمعات سكنيّة أشبه بمستعمرات عشائريّة تعكس الوحدة الثقافيّة للنازحين وتؤمّن لهم سندًا في وجه صعوبات المدينة. هذا ما جعل انخراطهم مع السكان المقيمين في البداية صعبًا – فالثقافتان مختلفتان جوهريًا – إلا أنّ تلك الصعوبة تقلّصت مع ظهور الجيل الثاني. يجمع الجيل الثاني (مواليد السبعينات والثمانينات) بين تراث القرية الذي نقلَه الآباء وبين بدايات التكيّف مع حياة المدينة التي وُلدوا أو ترعرعوا فيها. ساعدت التطورات السياسيّة في الثمانينات (كصعود الأحزاب اليساريّة والإسلاميّة وانخراط العديد من الوافدين فيها)، إلى جانب شيوع التعليم وانتشار التلفاز والهاتف، في تشكيل شخصيّة هذا الجيل المزدوجة. تخلّى شبّان الجيل الثاني تدريجيًا عن الزي القروي المحافظ لصالح لباس المدينة العملي، واتّسعت دائرة علاقاتهم الاقتصاديّة والثقافيّة خارج إطار العائلة والحي. ومع نهاية الحرب، بدأ هؤلاء يشعرون بالانتماء إلى حيّ الرمل كـ«مجتمع محلي» له مصالح مشتركة ومصير واحد، وليس مجرد امتداد مؤقت للقرية. لقد أدى اعتيادهم على النظم الاجتماعية الجديدة في الضاحية ونموّ مصالح اقتصادية لهم (فتح دكان، شراء بيت، إلخ) إلى تثبيت جذورهم وجعل عودتهم إلى القرية أقل احتمالاً من آبائهم. وهكذا يمكن اعتبار حيّ الرمل قد تحوّل إلى مجتمع متكامل المعالم في نظر هذا الجيل.

الجيل الثالث (مواليد التسعينات ومطلع الألفية) هو أبناء وأحفاد الوافدين الذين ولدوا جميعًا في المدينة ولم يعايشوا حياة القرية إلا عبر حكايات الآباء وزيارات متباعدة. يتميّز هؤلاء بأن ارتباطهم الوجداني بالقرية ضعيف، بينما تشكّلت ذاكرتهم في أحياء الضاحية وثقافتها المدينيّة. تربّى معظمهم في أسر نوويّة صغيرة مع بداية تلاشي نموذج الأسرة الممتدة، وتلقوا تعليمهم في مدارس وجامعات بيروت، واحتكّوا منذ الصغر بمجتمع متنوّع. لذا فهم أكثر اندماجًا في الثقافة المدنيّة وأقلّ ازدواجية من الجيل السابق. فعلى سبيل المثال، أصبح زواج شاب من برج البراجنة بفتاة وافدة أو العكس أمرًا عاديًا ضمن هذا الجيل مع زوال الكثير من التحفّظات القديمة. وكذلك باتت الفتاة من هذا الجيل صاحبة قرار إلى حد كبير في رسم مسار حياتها مقارنة بأمها أو جدّتها كما سلفت الإشارة. يصف وصفي (1971) هذه الحالة بأنها "تكيف اجتماعي" ناجح؛ فالأحفاد يحملون معظم عناصر الثقافة الجديدة نتيجة انصهارهم فيها، كإيمانهم بالحريّة الفرديّة والاستقلال الشخصي وحق الفتاة في التعليم والعمل واختيار شريكها. بالتالي، يقلّ الصراع بين الجيل الثالث وأهله لأن الجميع باتوا أقرب منظومةً إلى ثقافة المدينة الحديثة (وصفي، 1971).

مع ذلك، يؤكد البحث أن التراث القروي لم يختف تمامًا بل أعيد إنتاجه بشكل مرن مع الأجيال الجديدة. فحتى الشاب المدني من أصل ريفي قد يُظهر بعض القيم الريفيّة في منعطفات حياته (كاحترام كبير للعائلة الممتدة أو التمسّك بلهجة والديه أو تقاليد معينة في الزواج والطعام). أي أن التغيّر الثقافي لا يحدث بحلقات منفصلة، بل هو عملية تراكمية تنتقل

فيها عناصر الثقافة جيلاً بعد جيل مع تعديلها شيئًا فشيئًا (وصفي، 1971). وهكذا حافظ مجتمع الرمل العالي على خصوصيته الثقافيّة الموروثة رغم تبنّيه الكثير من مظاهر التحضّر، وهو ما جعله حالة جديرة بالدراسة لفهم علاقة الريف بالمدينة في العالم العربي. وكما ذكرت جانيت أبو لغد (1986)، المدينة مرآة التغيير الاجتماعي لأنها الميدان الذي تتجلى فيه إعادة بناء المجتمع.

وقد رأينا في حالة الرمل العالي كيف انعكس التغيير الاجتماعي على مشهد المدينة/القرية في آن معًا، حيث استمرت الهويّة الريفيّة نابضة داخل فضاء حضري معاصر.

الخلاصة والاستنتاجات

يخلص البحث إلى أن حيّ الرمل العالي يمثل نموذجًا حيًّا للتفاعل المركّب بين عوامل النزوح القسري والاختياري، وبين البنى الريفيّة والقوالب المدينيّة في مجتمع واحد. لقد استطاع الوافدون خلق مجتمع هجيني حافظ على قدر كبير من خصائصه الريفيّة وفي الوقت ذاته تبنّى العديد من السمات الحضريّة. من منظور التنمية الاجتماعيّة، يظهر أن سياسة الدولة اللبنانية في إهمال الضواحي وعدم دمجها بنسيج المدينة بشكل مخطط جعلت الرمل العالي "منزلًا ببيوت كثيرة" أي مجتمعًا تعدّديًا قائمًا على التكافل الاقتصادي والتعايش الاجتماعي الحذر دون اندماج كامل. فعلى مدار ستين عامًا من تشكّله، لم يحظَ الحيّ بخدمات بلديّة ملائمة أو خطط إنمائيّة جادّة لتحسين بنيته التحتيّة أو ظروفه الاجتماعيّة. وإلى اليوم، يُعتبر الرمل العالي منطقة مهمشة رغم كثافة سكانها ومساهمتهم الكبيرة في اقتصاد الضاحية. ومع ذلك، أفرزت التجربة نوعًا من التعايش الدبلوماسي بين الوافدين والأهالي، قوامه التعاون في الاقتصاد والخدمات، والتسامح المتبادل على المستوى الاجتماعي، مع بقاء مسافة من الحرص والخصوصيّة لكل طرف. يمكن وصف العلاقة بأنها علاقة تكامل أكثر منها اندماج؛ تكامل حيث أصبح الوافدون ركنًا أساسيًا في الحياة الاقتصاديّة والسياسيّة المحليّة، فيما ظلّ التواصل الاجتماعي عابرًا وخاضعًا لمجاملات وضوابط مرجعيّتها انتماءات كل مجموعة.

كما يشير البحث إلى ظاهرة ملفتة برزت في العقود الأخيرة هي النزوح العكسي نحو الريف أو تمدين الريف. فبعد انتهاء الحرب وتحسّن الأوضاع الأمنيّة في القرى، بدأ بعض سكان الرمل العالي بالعودة الجزئيّة إلى بلداتهم الأصلية – خصوصًا في عطلات نهاية الأسبوع والصيف – واستثمروا في إعادة إعمار منازلهم هناك. لقد نقل هؤلاء معهم بعض مكتسبات الحياة المدينيّة إلى الريف، كأساليب البناء بالإسمنت متعدد الطوابق والاهتمام بالبنى التحتيّة وتأسيس مشاريع تجاريّة. وهذا يسهم في تطوير أنماط الحياة الريفية نفسها وجعلها أقرب إلى نمط المدن. بمعنى آخر، لم تقتصر المسألة على تأثر الريفيّ بالمدينة فحسب، بل أيضًا تأثرت القرية بعودة أبنائها المدينيين وما حملوه معهم من أفكار واستثمارات. وعلى نطاق أوسع، أدّت هيمنة الإعلام الفضائي وشبكات الإنترنت في العقدين الأخيرين إلى تسريع انتشار الثقافة المدينيّة والمعولمة في كل بيت ريفي في لبنان. وبات من الصعب اليوم رسم خط فاصل واضح بين ثقافة الريف وثقافة المدينة كما كان في الماضي، فالمجتمع اللبناني يعيش حالة تداخل مستمر بينهما.

مع ذلك، تكشف حالة الرمل العالي أنّ عمليّة التغير الثقافي ليست سلسة بالكامل، إذ يصاحبها حالة مراوحة هويّاتيّة لدى الجماعات النازحة بين الماضي والحاضر. فالجيل الأول بقي قلبه معلقًا بقريته وهذا جعل اندماجه المديني ناقصًا، بينما

الجيل الجديد أكثر تجذّرًا في المدينة لكنه ورث بشكل ما بعض ولاءات الماضي واتخذ منها مرجعيّة قيمية يستند إليها في مواجهة تحديات الحاضر. هكذا تشكّلت هوية مركّبة لأبناء الرمل العالي تجمع بين شعورهم بأنهم "من أهل بيروت" عمليًا وبين إحساسهم الداخلي بأنهم "أبناء الضيعة". وربما يفسّر هذا ازدواجيّة سلوكهم: فهم يشاركون مجتمعهم الجديد نشاطاته وينخرطون فيه، لكنّ روابطهم العائلية وصلاتهم بقراهم تبقى حاضرة بقوّة (زيارات أسبوعيّة، بناء بيوت في الوطن الأم، دفن الموتى هناك). يمكن توصيف هذا الواقع بأنه عدم اندماج كامل ولكنه تعايش مستقر.

ختامًا، يبرهن البحث أن الضواحي العشوائية مثل الرمل العالي ليست مجرد تجمعات بؤس وفوضى عمرانيّة، بل هي مجتمعات لها ديناميّاتها الخاصة وقدرتها على التكيّف والصمود. فقد نجح سكان الرمل العالي في تحقيق قدر من الاستقرار المعيشي وبناء مجتمع محلي متنوع، رغم ظروف نشأته الصعبة وافتقاره للدعم الرسمي. ويظهر أن التماسك الاجتماعي المستمد من ثقافة الريف لعب دورًا حاسمًا في هذا النجاح النسبي، إذ وفّر للوافدين شبكة أمان اجتماعي ومخزونًا قيميًا أعانهم على تجاوز صدمات الغربة والتهميش. وفي المقابل، أدّت عوامل الحداثة في المدينة إلى تطوير الثقافة الريفيّة نفسها باتجاه مزيد من المرونة والانفتاح، دون أن تفقد هويتها الأصلية. إن قصّة الرمل العالي هي قصّة قرية نمت داخل مدينة، بكل ما فيها من تناقضات: عصبيّة وتسامح، محافظة وتجديد، صراع وتعايش. وهي بذلك تقدم نموذجًا مصغرًا لفهم تحوّلات المجتمع اللبناني في نصف القرن الأخير تحت تأثير النزوح الداخلي والتغيرات الاقتصادية والسياسية. فعندما «تجمع المدينة أضدادًا متنافرين» في مساحة مشتركة (الماوردي، 1058)، يتشكل واقع اجتماعي معقّد، لكنّه قابل للحياة والتطوّر إذا وجدت المجموعات المختلفة أرضية للتفاهم والتكامل. لقد طرح سكان الرمل العالي قضايا الانتماء والهوية في حيّز المدينة العامة (خوري، 1988)، وبرهنوا أن بناء مجتمع مشترك ممكن رغم كل عوامل التباين، ما دام هناك احترام متبادل وسعي مشترك نحو تحسين الحياة للجميع. وبالرغم من عدم تحقيق اندماج اجتماعي كامل حتى الآن، فإن تجربة الرمل العالي تبقى نبراسًا يُستدلّ به في أبحاث التحضر والتغيير الاجتماعي في العالم العربي، لأنها تسلّط الضوء على القوة الكامنة في ثقافة الناس وقدرتهم على إعادة تشكيل مصيرهم رغم الظروف الصعبة.

تجدر الإشارة إلى أن تجربة حيّ الرمل العالي ليست معزولة في السياق العربي، بل تتقاطع مع تجارب مشابهة في مدن أخرى شهدت موجات نزوح داخلي حادّ. على سبيل المثال، يقدّم حيّ "سبينة" في ريف دمشق نموذجًا مشابهًا لناحية نشأته من تجمعات نازحة من الجنوب السوري خلال الستينات والسبعينات، وتحوّله إلى حيّ شعبي مكتظ خارج التخطيط الرسمي. كما يمكن مقارنة الرمل العالي بـ حيّ "الحسين" في القاهرة، الذي شكّل ملاذًا للطبقات النازحة من الأرياف المصرية إلى العاصمة، مع احتفاظ السكان بهويتهم الريفية في فضاء حضري مفعم بالتدين الشعبي والتكافل العائلي. هذه المقارنة تُظهر أن الحواضر العربية الكبرى أنتجت أحياء هامشية مشابهة، تعكس ديناميات النزوح والاندماج الجزئي، وتشترك في التوتر بين الريف والمدينة، وبين الأصالة والتحديث، وإن اختلفت في السياقات السياسية والعمرانية. مثل هذه المقارنة تُبرز قيمة حيّ الرمل العالي ليس فقط كحالة لبنانية خاصة، بل كنموذج قابل للتعميم الجزئي في سياق التحضر العربي غير المتكافئ.

توصي الدراسة بإجراء مقارنات مستقبليّة بين حيّ الرمل العالي وأحياء عربية مشابهة من حيث النشأة والتكوين، مثل "الكرنتينا" في بيروت، "حي النبعة" في سن الفيل، "حي صيداوي" في طرابلس، "حيّ الحسين" في القاهرة، و"مخيم سبينة"

في ريف دمشق. إذ يُمكن لمثل هذه المقارنات أن تضيء على الفروقات في آليات الاندماج، وإعادة إنتاج الهوية، والتفاعل مع السلطة الرسمية في بيئات حضرية متنوعة.

المراجع

1. غالي، بطرس (1996) نشرة سكان العالم، صندوق الامم المتحدة للسكان، بيروت .

2. فاعور، علي (1992) التحولات الديموغرافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ط1، دار المؤسسة الجغرافية، بيروت.

3. كيال، م. (2000). تحولات الزمن الأخير، مركز الانماء القومي، بيروت .

4. فهد سليمان فرحات، برج البراجنة ماضٍ عتيد–حاضر مجيد–غدٌ مرتجى، الجزء الثاني، بيروت، 1993.

5. ديراني، أحمد. (1996). التنابز والتواصل أشكال اندماج ابناء الريف في المدينة، رسالة دبلوم في الانتروبولوجيا، بيروت

6. نصر، رامي، مقاربات حول سؤال التثاقف: قراءة في واقع تحولات الريف اللبناني, دراسة نشرت على موقع انتربروس http://www.aranthropos.com/، تاريخ دخول الموقع 2019/07/25.

7. وصفي، عاطف، (1971)، الأنثروبولوجيا الثقافية; مع دراسة ميدانية للجالية اللبنانية الإسلامية بمدينة ديربورن الأميركية، دار النهضة العربيّة، بيروت.

8. ام سهيل منصور، ربة منزل وناشطة اجتماعية في بُرج البَراجنة، بتاريخ 8–10– 2019 ومدتها 3 ساعات.
9. ام كامل السباعي، من قدماء محلة بُرج البَراجنة، بتاريخ 11–10– 2019 ومدتها 3 ساعات.
10. حسين عساف، عضو لجنة حي وناشط اجتماعي في حي الرمل، بتاريخ 20–11– 2018 ومدتها ساعتان.
11. محمد العنان، مدير ثانوية رسمية في بُرج البَراجنة سابقا" وناشط اجتماعي، بتاريخ 22–11– 2018 ومدتها ساعتان ونصف.
12. سليمان فرحات، عميد متقاعد من قدامى سكان حي الرمل، بتاريخ 3–12– 2018 ومدتها 3 ساعات
13. حسين شحيمي، عضو لجنة حي وناشط اجتماعي في محلة الرمل العالي، بتاريخ 23–12– 2018 ومدتها ساعتان
14. رفيق عبود، عضو لجنة حي في عين السكة ببُرج البَراجنة، بتاريخ 15–12– 2018 ومدتها ساعتان
15. خليل الموسوي، قدماء حي الرمل ورئيس لجنة شارع في حي الرمل العالي، بتاريخ 3–1– 2019 ومدتها 4 ساعات

16. ابو محمد حمود، قدماء وافدي الرمل من الجنوب، بتاريخ 5-1- 2019 ومدتها 3 ساعات
17. كاملة زراقط، ربة منزل ومن قدماء حي الرمل، بتاريخ 6-1- 2019 ومدتها ساعتان
18.
19. محمد برو، رئيس لجنة حي آل برو وصاحب مؤسسات اقتصادية، بتاريخ 8-2- 2019 ومدتها ساعتان.
20. هشام شداد، دكتور مادة التاريخ، المقابلة الثانية: 19-2-2019 ومدتها ثلاث ساعات.
21. Bhabha, H. K. (1994). The Location of Culture. London: Routledge.
22. Berry, J. W. (2005). Acculturation: Living successfully in two cultures. International Journal of Intercultural Relations, 29(6), 697–712.